

أسرار رمضان 15



(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا زِدْكُمْ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ
نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعُنَاتِ اللَّهِ عَلَيْ الْكَاذِبِينَ).

ولم لا وهو الصادق الأمين؟ لذلك يتقدم بأقرب الناس إليه، فاطمة وعلي والحسن والحسين (عليهم السلام)، ليبتهل بهم إلى الله تعالى، وهو أمر لا يقدم عليه إلا من كان واثقاً برسالته ومؤمناً بعدالة قضيته ووثاقاً من تسديد الله تعالى له، وهي كلها صفات اجتمعت في رسول الله (ص) لذلك لم يتردد في اصطحاب أهل بيته للمباهلة مع أهل الكتاب، والذين قال عنهم الله تعالى في محكم كتابه الكريم: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا).

وفي ليلة الخامس عشر من شهر رمضان المبارك، ليلة ولادة السبط الأكبر لرسول الله (ص) الإمام الحسن بن علي المجتبي (عليهم السلام)، وهو أحد الخمسة الذين طهرهم الله تطهيرا، تقفز إلى الأذهان قضية

(الصلح) الذي أبرمه مع الطاغية ابن آكلة الأكباد معاوية بن أبي سفيان بن هند بن حماسة صاحبة الراية في الجاهلية.

لا أريد هنا أن أتحدث عن تفاصيل القضية، وأسباب (الصلح) وشروطه ونتائجه، وإنما أريد أن أتحدث هنا، وفي هذه المساحة الصغيرة، عن الأسس التي بنى عليها أهل البيت (عليهم السلام) موافقهم ومنهجيتهم من تطورات الأحداث التي عاشوها وعاصروها ومروا عليها، والتي شخّصت في سيرة هـ م مبدأ (وحدة الهدف وتعدد الأدوار).

الأساس الأول: هو أنّهم يتعاملون بواقعية بعيداً عن أي نوع من أنواع المثالية، من جانب، وبعيداً عن أي نوع من أنواع الغيب، من جانب آخر، ولذلك، مثلاً، قـد لـ الإمام أمير المؤمنين (ع) أن يكون عضواً في الشورى الستة التي عيّنّها الخليفة الثاني قبيل وفاته، مع كلّ المؤاخذات والملاحظات (الشرعية) التي كانت عنده عليها، لأنّها كانت واقعاً سياسياً سعى لتوظيفه فيما بعد لتحقيق الهدف الأسمى بالنسبة له، ألا وهو خدمة الأمة وإنقاذها من ورطتها عندما تشتد الخطوب، وذلك في إطار نظرة ثابتة للأمور تقرأ المستقبل بشكل سليم وصحيح.

وهكذا بالنسبة لصلح الإمام الحسن (ع) وثورة الإمام الحسين (ع) وقبول الإمام الرضا (ع) لولاية العهد، وغير ذلك من المواقف والسـيـر المعروفة عن أئمة أهل البيت (ع) وأنّ من يحاول تفسيرها بشكل تعسفي من خلال إفحام المثاليات والغيب والمعاجز، بسبب عدم فهمه واستيعابه لهذه السـيـر العطرة، فإنما يظلم الحقيقة ويضحك على نفسه، وهو يحاول، بذلك، التهرب من المسؤولية من خلال التعامل مع أئمة أهل البيت (ع) وكأنهم ليسوا بشراً وأنهم لا يخطون خطوة واحدة قبل أن يرسم لهم الغيب ما يجب عليهم فعله، وأنّ كلّ ما فعلوه لا يتعدى خارطة الطريق المرسومة لهم غيباً، فهم مسيـرون، إذن، حسب هذا التفسير، فكيف تريدنا أن نحذو حذوهم؟ ونسير بسيرتهم؟ ونتخذهم أسوة وقدوة في حياتنا اليومية؟ وهو بيت القصيد ومربط الفرس، كما يقولون، من أي تفسير تعسفي لحياة وسيرة أهل البيت (ع).

أما الأساس الثاني؛ فهو أنّهم، عليهم السلام، يقدمون المصلحة العليا للأمة على كلّ المصالح الأخرى، وبقراءة سريعة للمنهج الذي ساروا عليه في ظل مختلف الظروف الاجتماعية والسياسية، فسند أنّهم حـفـظـوا للأمة، في كلّ مرة، مصلحتها العليا، ولو لم تتحقق في كلّ مرة لما تبنّوه وساروا عليه أبداً، فعندما صرف الإمام علي (ع) النظر عن حقه بالخلافة بعد وفاة رسول الله (ص) فإنما لتحقيق الصالح العام فقط وليس لأي شيء آخر، ولقد شرح الإمام ذلك بقوله: "فلمّا مَضَى (صلى الله عليه وآله)

تَنَازَعَ الْمُؤَسِّلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَالَ مَا كَانَ يُلَاقَى فِي رُوعِي، وَلَا يَخْطُرُ بِيَدَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ (صلى الله عليه وآله) عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنْزَهُمْ مُنْجُوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ! فَمَا رَاعَنِي إِلَّا أَنْثِيَالُ النَّاسِ عَلَيَّ فُلَانُ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكَتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَيَّ مَحْقٍ دَيْنٍ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله) فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ أَهْلَاهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَامًا أَوْ هَدْمًا، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتٍ وَلَا يَتَكُمُّ السَّيِّئُ إِلَّا نَمًا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَتَهَضَّتْ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَطْلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهَّاهُ."

وهكذا هو الأمر لبقية المواقف وتفاصيل النهج الذي التزم به أهل البيت (ع) كما هو الحال، مثلاً، في (صلح) الإمام الحسن (ع).

الأساس الثالث: هو انهم، عليهم السلام، يحاولون إقناع الأمة بالشئ الصحيح، بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار والمنطق والمحااجة السليمة، بعيداً عن أي نوع من أنواع الفرص والإكراه والتعسف، وبعيداً عن استخدام القوة والسيف، التزاماً بالنهج القرآني الواضح بهذا الشأن، والذي يحدثنا عنه رب العزة بقوله: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلِيٍّ بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُومِّيَّتٌ عَلَيَّكُمْ أَلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) حتى إذا أفست الأمة رأيهم بالعصيان، ولم تقتنع بالحق، واختارت الأغلبية أمراً، فلم يكن للإمام أن يرفض ويفرض عليهم شيئاً يكرهونه أبداً، ولذلك قبل الإمام أمير المؤمنين (ع) بالتحكيم ليس لإيمانه به واعتقاده بصحة الفعل، أبداً، وإنما لاختيار الأغلبية لهذا النهج، وهو، عليه السلام، كان يعلم علم اليقين بخطئه، وأنهم سيندمون عليه، إلا انه (ع) أمضاه لتحمل الأمة مسؤولية قرارها، أخطأً كان أم صحيحاً.

كذلك، إنما قبل الإمام الحسن (ع) (الصلح) مع الطاغية معاوية بعد أن رأى أغلبية (الأمة) كارهة للحرب، وإن لا طاقة لها على خوض غمارها، فلقد شرح الإمام (عليه السلام) ذلك في معرض جوابه على سؤال أكثر من واحد من أصحابه عن علة (الصلح) وسر عدم خوضه الحرب ضد الطاغية معاوية الذي كان يمثل جماعته الفئة الباغية بنص القرآن الكريم: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَمْسَلِجُوا بَيْنَهُمَا فَاِِنَّ بَغْيًا عَظِيمًا هُمَا عَلَى الْخُرَىٰ فَقَاتِلُوا السَّيِّئَ

تَبِغِي حَتَّى تَفِئَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ وَأَصْلَحُوا بِإِذْنِهِمْ
بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) فقال (عليه السلام): "اني رأيت
هوى معظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون" ولطالما استفتاهم
الإمام قبل أن يعقد (الصلح) مع الطاغية، بقوله: "الا وان" معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزٌّ ولا
نمّقة، فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى عز وجل بظبا السيوف، وإن أردتم الحياة
قبلناه، وأخذنا لكم الرضا" فكان يناديه الناس، في كلِّ مرة، من كلِّ جانب: البقية، البقية!!!.

والآن: أين نحن من هذا النهج الرسالي؟.

وكلِّ رمضان وأنتم بخير.